نبيل المهايني

السكون والحركة في « اين ورد الصباح »

لا ادري اذا كان الامر مقصودا . لكن ليس محض صدفة ان يكون عنوان ديوان شعر عبدالامير معلة مسكوبا في سؤل . كما لا نظنه محض صدفة محتوى السؤال ولا فحواه : « أين ورد الصباح » .

اتخيله طفلا ـ هكذا برز امامي من خلال ابيانه ـ في قلبه وعي الراشدين ، في قلبه ادراك اليقين ان الاماني ليست صادقة على الدوام ، في قلبه الاسى على عالم لا يدري من اي طرف يمسك به . لا يدري كيف يسأنه ..

ويتحول ديوان الشعر الى سؤال كبير . كما ان الشعر العربي ، اكثره ، في هذه المرحلة ، سؤال كبير .

وبين السؤال ـ الاستفهام ـ والاسى هناك كل المشاعر والعواطف : « .. نبكي .. من الحب نبكي .. ومن فرح الناس نبكي .. ومن وجع القدس نبكي .. ونرسم بغداد .. نبكي .. ونبكي ونبكي .. »

يتحول الشاعر الى تمثال جوال . في ظاهره الجمود (كجمود تقاسيم تماثيل المآسي الجليلة) وفي باطنه العذاب . ويتحول شعره الى نوع من السكون الذي لا يدري اي من الناظرين اليه كم من الحركة ، كم من آلام المخاض ، من تمخضات الاسى والفرح ، تعتمل وراء ، تحت ، خلف تلك القشرة ، ذلك السطح الساكن الهادىء الجامد .

ولم أشعر بالحاجة لان اعرف تمام المعرفة قوانين العروض او بالاحرى مبادىء التقطيع ودقائق التفعيلات كما حدث لدن قراءتي « أين ورد الصباح » . ذلك اني اقتنعت ان هالة السكون (السكون الذي تولده المعاني والسكون الذي توحي به الموسيقى) لا بد انها تلف في طواياها حركة موسيقية هائجة وفوارة .

على كل ليس القاريء ، اي قاريء ، بحاجة لان يكون ملما بالنحو الموسيقي حتى يكتشف ذلك التباين او التعاكس الذي يوحي بتكامل الصورة الشعرية بل الانسانية للشاعر ولتعبيره . ها هي الابيات الاولى من القصيدة الاولى في الديوان تكشف عن البناء الاساسي لشخصية الشاعر وشعره ، عما تكلمنا عنه من السكون والحركة وتكاملهما :

« وانت
هبطت عند مشارف الظلمات
تحف بك النوارس
كل نورسة ملاك
في النوم جئت
وعند حاشية الرمال وقفت .. »

ان التباين الظاهر بين الكوكب (رمز الانبعاث . والقصيدة مهداة الى نبيه) وبين مشارف الظلمات ، بين سكون الليل وبين حركة النوارس والملائكة ، بين النوم رمز السكون وبين المجيء دلالة الحركة ، بين الرمال رمز الموت وبين لمسة الملاك (وقفت) رمز الاحياء ، بتردد ليس في انحاء هذه القصيدة وحسب بل في كل ديوان عبدالامير معلة . كما ان البيت الاخير في القصيدة يكشف عن الامر بصورة اوضح واجلى :

« وكان في الاحداق
هوى متخثر
لما طلعت
وفاض منك الماء .. »

ان عبارة « الهوى المتخثر » تكفينا وحدها للدلالة على ما نقول . هوى متخثر يفيض منه الماء . يفيض منه

« الماء » ـ الحياة ـ الفعل ، في اللحظة المناسبة ، لحظة « الطلوع » . تماما مثل الشرارة التي لا تشتعل الا في لحظة التقاء الفيمتين . قد لا يكون في هذا البيت رنين خطابي وحماسي ، قد لا يكون بيتا من تلك التي تلهب الايدي بالتصفيق والحناجر بالهتاف ، شأن تلك التي تمتليء بها ساحات الوطن العربي المسكين، لكنه من الابيات القليلة التي سمعتها والتي أظن انها تعبر بصدق وعمق عن معنى الانبعاث كما يفهمه « الكوكب » الذي وضعت القصيدة تمجيدا لشأنه : وكان في الاحداق هوى متخثر ..

هناك عبارات اخرى في القصيدة تتردد ، عبر حركات مماثلة ، في قصائد الديوان الاخرى . لنأخذ مثلا كلمة « الفقراء » . منذ المرة الاولى التي يستعملها معلة نشعر ان للكلمة رنينا مثل ذاك الذي نحسه في ابيات الحلاج ، او اذا اردنا البقاء في هذا العصر ، في ابيات البياتي او حتى السياب . الفقراء بمعنى الاطفال ، المعذبين ، المساكين بالطبع ، اصحاب « الثياب الممزقة »، « الوجه المشقق » ،«الوجه المحفوف بالاخطار » ، « الرهائن » ، « البؤساء » ، « ناس الازقة ومدن القمار» .. الخ .. انها عبارات مأخوذة من القصيدة الاولى لكنها تتردد باشكال مختلفة ، لتدل على معنى واحد ، في كثير من قصائد « أين ورد الصباح » .

هناك قصيدة اخرى اعتقد ان حركتها تكشف عن حركات ومعاني وموسيقى كثير من القصائد الاخرى ،كما انها تعطينا « مفتاحا » آخر من مفاتيح سلم معلة وشخصيته الشاعرية والانسانية . أتكلم عن قصيدة « ممرات عقبة بن نافع » . فهناك الواقع ، فزع سكونه ، قحطه ، يتعاكس مع روعة الحلم بكل عنفوان بأسه ، وقوة حلوله ، ثم جمود الواقع من جديد والذي يتعاكس هذه المرة مع وقع الامل الذي يتخافت بعد ان حل طارقا ليتلاشى بين طيات الواقع . هناك في البدء الساحة العارية والشجر اليابس والحزن وشخير الجرحى والنداء : « يا عقبة .. الساحة عارية .. » . ثم يحل الحلم : فينشق البحر ويركز عقبة فيه سيفه ، يجيء الصيف ، هناك دق على ابواب العالم ، الخيل ، البحر ، الجند المنتصرون تضيق بهم طرق العالم ، الساحة الضاحية طول الليل . ومن ثمة يعود الواقع ، يتلاشى الحلم : « هل مررت حقا من هنا ؟ »(أليس هو الذي سأل أين ورد الصباح ؟). لكن الساحة أقفرت ، بنات الحي اختفت من شوارع السويس (السويس رمز الصحوة،التي تبدو الان بعد سنين قليلة مجرد حلم غاب). وهكذا تعود « اصوات الورق اليابس والحزن ؟ »ويحاصر العري ، عري الساحة ، عقبة ، والبحر يعود خاليا .. لكن وعندما « الاسواق تغرق في الماء الآسن ، والدم ، والاضواء انطفأت .. » ، عندما تنطفيء كل الاضواء ، تخبت كل الامال ، عندما يبكي الشاعر ، تتحرك اعماق السكون من جديد ، يتميع بعض الهوى المتخثر ، ينبع شيء من الماء :

« لكنك تسمع طرقا عند الباب .. وصوتا
يخفت .. يخفت .. يخفت ..
عقبة آت
عقبة آت
آت
آت عقبة
آت .... » .

الموسيقى هنا في انسجام كامل مع المعنى ،الوحشة، الوحدة ، التقفر بمعنى يؤس النفس ، الانغلاق ، الجمود ، الدهشة امام العالم وتحولاته ،الامل والحلم بكل اعاصيرهما الموجعة ، الايمان بكل توتراته هي التي تتفاعل كلها متعاكسة ومتكاملة في قصائد عبدالامير معلة . وآمل ان اتمكن في المستقبل القريب ، او ان يتمكن غيري ،من اكتشاف الموسيقى التي توازي على مستوى الاسلوب تلك الحركات التي اشرنا اليها على مستوى المحتوى . ولا اقول اني ارجو ان تصعد الحركة الموجودة في شعر المعلة الى سطح السكون لتظهر امام الجميع ، بل أقول اني ارجو ان تتدفق قصائده المقبلة بزخم يحمل هذه المعادلة الى اقصى حدودها . ولن يهم بعدها الا يعرف القاريء السطحي ان الهدير العظيم ليس الا موسيقى ذلك النهر الذي يبدو وكأنه ساكن المياه ..

روما

قريبا

الطريق الى الخيمة الاخرى

دراسة في اعمال

غسان كنفاني

تأليف

الدكتورة رضوى عاشور

منشورات دار الآداب